وبالنقاء والهدوء،

قاده إلى المصدر.

ليس من السهولة بمكان إعادة تكوين أصل هذا التقليد من حيث تسلسل الأحداث التاريخية، إن مفهوم الطاو الصوفي تولد بعد مفهوم الطاو السحري. ولكن بالنسبة لأتباع /لاو ـ تسو/ إنه يسبقه. ولذا كان يلزم، إذن، أن يصبح الأخ الأكبر لـ/ كنفوشيوس/. وهكذا تخيلوا هذا اللقاء بين الفيلسوفين ولكنه ليس اللقاء الوحيد الذي تذكره التقاليد.

إذا كان /تشوانغ ـ تسو/، وهو ألمع مفسري /لاو ـ تسو/ يتلذذ بمكر في سرد مثل هذه القصص عن اللقاءات المذلة دائماً لـ/كنفوشيوس/. كان يُظهر /لاو ـ تسو/ فيها دائماً المعلم الذي يعطي درساً للجاهل بإصول الطاو.

وهذه إحدى الحوارات التي ننقلها بتوسع. وسنشرح مفهومي القطبية اليانغ (الذكري) والـ/ين/ (الأنثوي) في الفصل التالي:

زيارة /كنفوشيوس/ لـ/لاو ـ تسو/:

ذهب /كنفوشيوس/ لزيارة /لاو ـ تسو/ فوجده جامداً بلا حراك وفي حالة انخطاف بالروح واستولت عليه الغيبة بينما كان يجفف شعره بعد الوضوء. انتظر باحتشام حتى يعود إلى نفسه ثم قال له:

ـ لقد تركت الأشياء والناس واختليت في عزلة الآنا!

ـ نعم، قال /لاو ـ تسو/، أرتع في أصل الأشياء.

ـ ماذا يعني ذلك؟ سأله كنفوشيوس.

ـ لم أعد بعد تماماً إلى حالتي، قال /لاو ـ تسو/، فروحي مانزال تعبة ولا تستطيع بعد التفكير كما ينبغي، وفمي المشدود لايستطيع النطق بسهولة. ومع ذلك سأحاول إرضاءك... إن ذروة الـ/ين/ هي السلبية الهادئة وذروة الـ/يانغ/ هو النشاط الخصب.

إن سلبية الأرض تعرض نفسها إلى السماء وإن نشاط السماء يمارس على الأرض: من هذين الشيئين ولدت جميع الكائنات. إن قوة غير مرئية من فعل ورد فعل الثنائي سماء ـ أرض تحدث كل تطور: بداية، توقف، كمال، فراغ، ثورات فلكية، مراحل الشمس والقمر، كل هذا تحدثه علة وحيدة ما من شخص يراها ولكنها حاضرة دائماً.